حرب تموز وفلسطينيو ٤٨:
المفاجأة التي لم يُحسب لها حساب

سهير أبو عقصة داود*

قبل حرب تموز ٢٠٠٦ خاضت الدولةُ اليهوديةُ خمسَ حروب في إطار «النزاع العربي ـ الإسرائيلي،» كان آخرها «حرب سلامة الجليل» عام ١٩٨٢ بحسب تسمية الحكومة الاسرائيلية، والتي غَلَبَ عليها فيما بعد اسمُ «حرب لبنان.» وقد كان تأثيرُ حرب ٢٠٠٦ في معظم فلسطينيي ٤٨،[١] عميقًا وشديدًا إلى درجة أنّهم يُطْلقون عليها ببساطة اسمَ: «الحرب»؛ فبالنسبة إليهم كانت تلك هي المرةَ الأُولى التي يعيشون فيها الحربَ رغم تاريخ النزاع الطويل بين إسرائيل وجاراتها.

يمكن القول إنّ إسرائيل خاضت حروبًا ستّاً ضدّ العرب، ولكنْ كانت حربُ تموز ٢٠٠٦ هي المرةَ الأولى التي تُخاض فيها حربٌ ضدّ إسرائيل. فهذه هي الحربُ الأولى التي ظَهرتْ فيها قوةٌ حقيقيةٌ من وراء الحدود لا تندحر، بل وتستمرّ في القتال، مخلِّفةً فشلاً سياسيّاً وعسكريّاً إسرائيليّيْن ذريعَيْن، إلى جانب الدمار المعنوي والإعلامي الذي هَزّ أسطورةَ «الجيش الذي لا يُقْهر» لدى سكّان دولة إسرائيل قبل أيّ أناسٍ آخرين. وقد وَصَفتْ ناشطةٌ في الحزب الشيوعي الإسرائيلي المعادلةَ الجديدةَ التي أَرستْها المقاومةُ اللبنانيةُ بالقول: «أردنا وقفَ الحرب، ولكنْ شَجَّعَنا هذه المرّةَ أنّ الحرب لم تمرّ كما مرّت في السابق، وأنّه أخيرًا ' أجاك يا بلّوط من يعرفك.'» هذا ويؤكّد العديدُ من فلسطينيي ٤٨ واليهود بعد أكثر من عام على الحرب الأخيرة أنّ هذه «النكسة» لا يمكن أن يمحوَها إلاّ نصرٌ عسكريٌّ جديدٌ على حزب الله أو على أيّ قوة لا تكتفي بتحدّي إسرائيل وحدها بل الولايات المتحدة أيضًا... التي اعتبرها الكثيرون في الشارع الإسرائيلي المحرِّكَ الأولَ لهذه الحرب والمستفيدَ الأولَ منها.

* ـ أستاذة العلوم السياسية في كلية هارفي مد ـ كاليفورنيا.

١ ـ يعيش ٧١ ٪ من فلسطينيي ٤٨ في ١١٦ بلدة، معظمُها تجمعاتٌ قروية، و٢٤٪ في ٨ مدن مختلطة؛ بينما يعيش ٤٪ في منطقة النقب في الجنوب، وواحد في المائة في مناطق أغلبيتُها الساحقةُ يهودية. يتركّز معظم الفلسطينيين في منطقة الشمال (الجليل وحيفا) التي تحوي حوالي ٦٠٪ من فلسطينيي ٤٨.

حرب المفاجآت

إحدى «مفاجآت» هذه الحرب (بحسب التعبير الشهير للسيد حسن نصر الله)، ولا أبالغ إذا قلت «صدماتها،» هي وقعُ هذه الحرب على فلسطينيي الداخل.

عدتُ إلى قريتي الجليلية الصغيرة معليا (تعدادُها ٢٥٠٠ نسمة وتَبْعد حوالى خمسة كيلومترات عن الحدود اللبنانية) بعد عام تقريبًا على انتهاء حرب تموز، التي كان نصيبُ قريتي منها أحدَ عشرَ صاروخَ كاتيوشا. وما وجدتُه هو أنّ صدمةَ سكّان إسرائيل من تلك الحرب التي لم يتوقّعوها لم تتبدّدْ إلى اليوم، وأنّهم ما زالوا يعيشون الحربَ التي يَعْرفون معناها لأول مرة في تاريخهم. وقد يبدو الحديثُ عن «صدمة الحرب» غريبًا بالنسبة إلى كثيرين في العالم كانوا يَحْسبون أنّ سكّانَ هذه البلاد، التي تأسّستْ على الحروب والأمن ومركزيةِ الجيش، اعتادوا الحربَ وويلاتِها. ولكنّ الحقيقة التي يؤكّدها الجميع أنْ لا حربَ خاضتها إسرائيلُ، بل ولا حربَ الخليج نفسها، أو العمليات الاستشهادية، تُشْبه ما حصل في الحرب الأخيرة: ففي حين أسّس دايڤيد بن غوريون، مهندسُ الدولة العبرية ورئيسُ وزرائها وأمنِها الأول، مدرستَه الأمنيةَ والسياسيةَ على عدم السماح لأيّة حرب بالامتداد إلى داخل الأراضي «الإسرائيلية،» وعلى إنهاء أيّة حرب تَدْخلها إسرائيلُ في أسرع وقت ممكن، فإنّ حرب تموز كَسَرَتْ تلك القاعدة التي ظلّت عقودًا تعطي سكّانَ إسرائيل الأمانَ. وتمثّلت الصدمةُ المذكورةُ في توقيت الحرب، ومُدّتِها، وأداءِ اسرائيل الفاشل على الصُّعد السياسية والعسكرية والإعلامية، إلى جانب شراسة المقاومة اللبنانية.

أما بالنسبة إلى فلسطينيي ٤٨ تحديدًا، فقد اتّخذتْ صدماتُ هذه الحرب أبعادًا إضافية، أهمُّها: تعميقُ انشراخهم عن الدولة العبرية، وتأصيلُ انتمائهم العربي رغم وقوع ضحايا في صفوفهم بسبب نيران المقاومة لا نيران الدولة التي يعيشون فيها.[1] كما زادت الحربُ الأخيرةُ من حدّة أزمتهم مع قياداتهم المحلّية، بعد أن أحسّوا بغياب مرجعيةٍ عربيةٍ مقاومةٍ تستفيد من النصر اللبناني وتستثمره ليكون سندًا لهم في مواجهة التهميش والتخوين اللذيْن طالوهم من جميع الأطراف داخل البلاد وخارجها. وبكلمة، فقد كان اعتدادُ فلسطينيي ٤٨ بالمقاومة اللبنانية عميقًا، ولكنّ صدمتَهم بضعف إسرائيل وبواقعهم الداخلي المعقّد كانت ذاتَ أبعاد كبيرة، حتى وَصَفَ أكثرُ من شخص وضعَهم في إسرائيل خلال الحرب بالـ«شيزوفريني» (الانفصامي).

كان اندلاع الحرب في حدّ ذاته هو المفاجأة الأولى.

أكثرُ من ثمانين شخصًا قابلتُهم بعد عام على الحرب، معظمُهم من الفلسطينيين وأقلُّهم من اليهود (في هذا المقال لن أتطرّق إلى شهادات اليهود عن الحرب)، أكّدوا، بلا استثناء، أنّ «الحرب لم تكن مفاجأةً شخصيةً لهم، أو للعربِ في هذه الدولة فحسب، بل للعالم أجمع أيضًا.» فالحال أنّ الحرب على الجبهة اللبنانية لم تكن واردةً في ذهن أحد بأيّ شكل: فقد كانت إسرائيل قبل حرب تموز مشغولةً بجلعاد شليط، الجنديِّ المخطوفِ في غزة، وكانت تشنّ حربًا شعواءَ ضد الفلسطينيين طوال ما يزيد عن شهر. وفي قرية معليا تحديدًا، كان السكّانُ الألفان والخمسمئة (الذين ينتمون جميعُهم إلى طائفة الروم الكاثوليك) مشغولين، إضافةً إلى قضية شليط، بمونديال كرة القدم. ولمّا كان شليط من عائلةٍ استوطنتْ أراضي تلك القرية بعد مصادرتها عامَ ١٩٧٩ ضمن مشروع «تهويد الجليل» الذي تبنّته حكومةُ بيغن آنذاك،[2] فقد أصبحتْ معليا موطئَ قدم ساسةِ إسرائيل، ومراسلي وسائل الإعلام، والمتضامنين مع العائلة، جميعُهم يمرّون عبر شارع القرية الرئيس المؤدّي إلى مستوطنة «هيلا،» مستوطنةِ الجندي المخطوف.

تقول ل من قرية معليا: «الحرب كانت صدمةً. اعتقدنا أنّ حزب الله سيرمي بضعةَ صواريخ، فتردّ عليها إسرائيل، وينتهي كلُّ شيء. لكنّها المرةُ الأولى التي تمسّنا الحربُ مع إسرائيل مباشرةً. لم نعتقدْ يومًا أنّ إسرائيل يمكن ان تَسمح بهذا الاختراق لأمنها؛ فلقد كبرنا على مفهوم أنّ إسرائيل دولةٌ عظيمةُ التسلّح، وأننا آمنون من الحرب. فإذا بهذه الحرب تعلّمنا أنّ حروب إسرائيل ضدّ الفلسطينيين في الأراضي المحتلة أو ضدّ لبنان قد تطالنا نحن أيضًا.»

المفاجأة الثانية كانت صواريخَ حزب الله التي امتدّت إلى كلّ مكان في الشمال، الأمرُ الذي حوّل مدنَه الرئيسةَ إلى مدن أشباح. وتشير إحدى الدراسات إلى أنّ ٨٥٪ من العرب في الشمال لم يتركوا منازلَهم رغم القصف، مقابلَ ٣٣٪ من اليهود.[3] وقد أَطلق حزبُ الله على إسرائيل حوالى أربعة آلاف صاروخ خلال الحرب، أدّت إلى تلقّي ٣١٨٣ شخصًا العلاجَ في المستشفيات، وإلى مقتل ١٥٦ شخصًا بينهم ١١٧ جنديّاً. من بين القتلى المدنيين الـ ٣٩،[4] هناك ١٨ فلسطينيّاً، أيْ حوالى

---

١ ـ منذ هبّة أكتوبر ٢٠٠٠ قُتل ٣٢ شخصًا من فلسطينيي ٤٨ على يد قوات الأمن الإسرائيلية. أنظرْ تقريرَ مركز مساواة، «المواطنون العرب في إسرائيل وحرب ٢٠٠٦ في لبنان،» حيفا، آب ٢٠٠٦، ص ٧ (بالإنجليزية).

٢ ـ أساس مشروع «تهويد الجليل» عام ١٩٧٦ وثيقةٌ سرية ليسرائيل كينغ، متصرّف لواء الشمال. وهدفُها نهبُ ما تبقّى من الأرض العربية في منطقة الجليل وتهويدُه بحيث يتم إفراغُ سكّنه الأصليين وإقامةُ المستوطنات اليهودية مكانه.

٣ ـ حامد اغبارية، «تأثير الحرب على سكان الشمال،» صحيفة **صوت الحق والحرية**، ٢٠٠٧/١/٤.

٤ ـ هذه الارقام صادرة عن الجيش والشرطة ونجمة داوود الحمراء. انظر ايلي لفي ودورون ناحوم وامير بوحبوط، «وقف إطلاق النار ـ عرض خاص،» **معاريف** ٢٠٠٦/٨/١٥ (بالعبرية).

قال ف من شفا عمرو: «ليس صحيحًا أنّ إطلاقَ الصواريخ كان عشوائيّاً... فالحقيقة أنّه في كلّ قرية عربية قُصفتْ كانت ثمة وحدةٌ متمركزةٌ للجيش الإسرائيلي.»

ضعفيْ نسبْتهم من مواطني الدولة (يشكّل العربُ حوالي ٢٠٪ من أصل ٧ ملايين شخص في دولة إسرائيل).[١] وقد سقط الكمُّ الأكبرُ من الصواريخ في الجليل (٣٥٣٠ صاروخًا)، وهي المنطقة التي يتركّز فيها أكبرُ عدد من فلسطينيي ٤٨ (كما سقط ٢٢٢ صاروخًا في مدينة حيفا في الشمال، و٢١٧ في منطقة المروج ، وصاروخان في الضفة الغربية).

يقول ج من قرية معليا: «في أول أيام الحرب كنّا نَخْرج من بيوتنا إلى مواقع في القرية تُمكّننا من رؤية قرًى لبنانية حدودية لنتابعَ صواريخَ حزب الله من جهة، وضرباتِ إسرائيل الجويةَ على لبنان من جهة أخرى. لم نأخذ الحربَ بجديّة. غير أنّ كلَّ ذلك تغيّر حين بدأ الناسُ يموتون جرّاء هذه الصواريخ، وبالذات حين بدأ سقوطُ ضحايا عرب.»

لقد كان لإصابات الصواريخ للعرب في الدولة العبرية وقعُ الصدمة بالفعل. يقول ف من مدينة شفاعمرو: «كان إحساسُنا، نحن العرب في هذه الدولة، أنّ هذه الحرب ضدّ اليهود لا ضدّنا، وكأنّ صواريخَ حزب الله مكتوبٌ عليها: 'لا تقتلْ عربيّاً'. ولكنْ حين بدأ العربُ يموتون، أصبحنا واليهودَ في قارب واحد؛ فالصواريخ لم تفرّق بيننا.» ويعلّق على ما تداوله العديدُ من المواطنين العرب بعد سقوط ضحايا عرب بالصواريخ وقولهم إنّ «حزب الله بدأ يخربش» بما يلي: «أكثرُ ما أدهشني دقّةُ صواريخ حزب الله؛ فكأنّ نصرالله يمسك بخارطة تفصيلية عن كلّ شبر في إسرائيل. ليس صحيحًا أنّ إطلاقَ الصواريخ كان عشوائيّاً ولهذا قُتل عرب. فالحقيقة أنّه في كلّ قرية عربية قُصفتْ كانت ثمة وحدةٌ متمركزةٌ للجيش الإسرائيلي، بل كانت هنالك قرًى لم تُقْصف **إلاّ بعد** أن أُرسلتْ إليها وحدةٌ من الجيش.»

هل يعني ذلك أنّه كان لحزب الله مركزٌ معلوماتيّ داخل إسرائيل؟ لقد حاولتْ إسرائيلُ لملمةَ الإهانة التي لحقتْها في الحرب، فأطلقتْ مثلَ تلك التساؤلات، بل واتّهمتْ علانيةً النائبَ السابقَ في الكنيست الإسرائيلي عزمي بشارة بالتواصل مع «العدوّ» وطالبتْ بمحاكمته. وفي هذا الصدد يعلّق ن من حيفا: «هذه سخافة كبيرة. فلقد أَثبت حزبُ الله أنّه قادرٌ من نواحٍ عديدة على الردّ، وهو ليس في حاجة إلى بشارة ليعرف ماذا يدور فيها.» وقال غيرُه: «اتّهامُ بشارة يدلّ على أنّ هذه الحكومة لا تَعْرف كيف وعلى مَنْ تُلْقي اللوْم. اتّهامُ بشارة دليلٌ آخر على فشل هذه الحكومة.»

المناطق المحتلة عام ٦٧ تصبح بقعةَ الأمان

كان لمدّة الحرب، وهي **المفاجأة الثالثة**، وقعُ الصدمة على سكّان الشمال الذين أَخذوا يَتْركون بيوتَهم إلى أماكن أكثر أمنًا. وكان أنْ فَتَحتْ قرى المثلّث والقرى الفلسطينيةُ البعيدةُ عن الشمال أبوابَها لهم، وآثر العديدُ منهم المناطقَ السياحيةَ في إيلات والمنتجعاتِ المصريةَ في سيناء هربًا من حرّ الصيف والحرب وصفّاراتِ الإنذار، وسافر قليلون إلى الخارج، وبقي معظمُ فلسطينيي الشمال داخل البلاد في انتظار نهاية الحرب.

وفي حين كانت منطقةُ تل أبيب أحدَ المراكز الرئيسة ليهود الشمال، كان لفلسطيني ١٩٤٨ ملجأٌ آخر في هذه الحرب، وهو الضفةُ الغربيةُ المحتلة، التي أصبحتْ تشكّل «مركزَ الأمان» فجأةً. وكانت مدينتا رام الله وبيت لحم أكثرَ الأماكن التي اختارها فلسطينيو ٤٨ لقضاءِ ما يعادل أسبوعًا من مدة الحرب الطويلة.

كانت تجربةُ فلسطينيي ٤٨ مع أبناء شعبهم أثناء تلك الحرب متباينةً. تقول ل: «ذهبنا إلى البحر الميت أسبوعًا، وقضينا أسبوعًا آخر في رام الله. في رام الله حصل استغلالٌ غريبٌ لنا، إذ رَفَعوا الأسعارَ بصورة غير طبيعية في الفندق وبركة السباحة، حتى إنّهم أرادوا بيعَنا البوظةَ بـ٣٠ شاقلاً [الدولار يساوي ٤,٣ شاقلاً]. صديقٌ لنا من رام الله أكّد أنّ هذه

١ ـ ضحايا الحرب من فلسطينيي ٤٨ (تم جمعُ المعلومات من مواقع مختلفة): ربيع طلوزي (٣ سنوات) وشقيقه محمد (٧) من الناصرة؛ حبيب عوّاد (٤٧) من قرية عبلين في الجليل؛ محمد فاعور (١٧) وشناتي شناتي (٢٠) وأمير نعيم (١٨) من قرية ترشيحا؛ بهاء كريم (٢٤) ومحمد منّاع (٢٤) من مجد الكروم؛ منى عزام (٢٧) من قرية المغار؛ فضّة جمعة (٦٠) وابنتاها سلطانة (٣٣) وسميرة (٣١) من قرية عرب العرامشة؛ حنّا حمام (٦٢) ولبيبة مزّاوي (٦٧) من حيفا؛ دعاء عباس (١٥) من قرية المغار؛ مريم أسدي (٢٥) و طفلها فتحي (٥) من قرية دير الاسد.

الأسعار مُبالَغٌ فيها جداً. لقد صدمتْنا المعاملةُ، وكانت تجربتُنا سلبيةً جداً.»

لكنّ ج وزوجتَه، اللذيْن تركا بيتهما في قرية كفر سميع بعد أن اخترقتْ شظايا أحد الصواريخ نافذةَ منزلهما واستقرّت في الصالة، يَمْلكان تجربةً مغايرةً تمامًا. يقول ج، وهو مدرِّسٌ متقاعد: «ذهبنا إلى بيت لحم فاستقبلونا بكلّ ترحاب. كنا ندفع مبلغًا رمزيّاً في الفندق الذي قضيْنا فيه أسبوعًا، وفي أيّ مكان تناولنا فيه الطعامَ. لقد تضامنوا معنا تضامنًا كبيرًا، وأحسستُ أنّني لأول مرةٍ أكتشفُ فلسطينيي الضفة.»

نحن... وهم

ذكر العديدُ من فلسطينيي ٤٨ أنّ علاقتهم بمعارفهم اليهود لم تتأثّرْ قطّ في هذه الحرب، أكان ذلك في أماكن عملهم أمْ في المدن المختلطة حيث يَسْكن الفلسطينيُّ جارًا لليهودي. ورغم ذلك أكّد بعضُهم أنّ اليهود تعاملوا بشكل مختلف مع فلسطينيي الشمال من أبناء الطائفة المسيحية، وأنّ بينهم مَنْ فَرَّقَ بين فلسطينيي الشمال الذين كانوا تحت نيران الحرب وبين الفلسطينيين في مناطق أخرى من إسرائيل كالمثلّث، معتبرين أنّ فلسطينيي الشمال «ضحايا» كاليهود بينما فلسطينيو المثلّث (وكلُّهم مسلمون بشكلٍ حصري) تضامنوا بشكل صريح مع حزب الله. وعن الاحتكاك باليهود في تلك الفترة تقول ج التي ذُكرتْ سابقًا: «ذهبنا أسبوعًا إلى البحر الميّت. كلُّ الشمال كان هناك، يهودًا وعربًا. لم يكن ثمة احتكاكٌ باليهود، ولكنّ الوضع لم يكن مريحًا.»

كانت الرؤيةُ الطائفيةُ إلى الفلسطينيين في الدولة الإسرائيلية من قِبل العديد من اليهود واضحةً في حرب تموز. وكعادة الدولة التي تَستعمل الخطابَ الطائفي للتعامل مع الأقلية القومية الفلسطينية وشرذمتها، فقد كانت هنالك محاولاتٌ للنظر إلى موقف الفلسطينيين من الحرب من خلال انتمائهم الطائفي. تقول ع: «تقدّمتْ منّي سيدةٌ يهوديةٌ في بهو الفندق الذي نزلنا فيه في البحر الميت وسألتني بعد أن سمعتني أتكلم بالعربية: 'أأنت مسيحية؟' وحين رددتُ بالإيجاب سألتني: 'مع مَنْ **أنتم** في هذه الحرب؟' فأجبتُ: نحن مع السلام ومع وقف الحرب. فماذا كان باستطاعتي أن أجيب غيرَ ذلك؟»

ولكنّ طالبًا في إحدى المدارس الأهلية الثانوية في حيفا (وهو يَحْفظ خطابات نصرالله كلمةً كلمة) يَجْزم بأنّ الخطاب الطائفي كان قويّاً في صفوف الفلسطينيين أنفسهم: «حين اندلعت الحربُ كنّا في العطلة الصيفية. العودة إلى المدرسة فَتَحَتْ نقاشاتٍ لا حصر لها، وكان هناك انقسامٌ واضحٌ في الصف الذي يحوي ٣٦ طالبًا. معظمُهم كانوا مع الحرب على لبنان. كنتُ المسيحيَّ الوحيدَ في الصف، إلى جانب عدد من الطلاّب من الأقلية المسلمة، مع حزب الله. هذا في رأيي ناجمٌ، للأسف، عن التربية في البيت، وهي تربيةٌ موجَّهةٌ ضد الإسلام وضدّ الحجاب. المعادلة، باختصار، كانت التالية: المسلمون في المدرسة كانوا مع نصرالله، والمسيحيون يتّهمونه بالتسبُّب بالحرب. جيلُنا لم يتربَّ على القومية والوطنية. قال لي المعلّم: ' كيف تدافع عمّن يطلقون علينا الصواريخ؟'»

الملاجئ وصفّاراتُ الإنذار

مَن لم يَتركْ منزلَه بقي في قريته وقضى معظمَ أيام الحرب في الحجرة الواقية. بعد حرب الخليج كانت دولةُ إسرائيل قد ألزمتْ أيَّ بناءٍ بأن يَشْمل حجرةَ أمانٍ تُبْنى بمواصفاتٍ معيّنة. معظمُ فلسطينيي ٤٨ يَستعملون هذه الغرفَ مخازنَ تموينٍ منزليّ، أو مطبخًا إضافيّاً؛ تقول إحدى ربّات البيوت: «لم نَحسبْ أبدًا أنْ سيأتي يومٌ تُستعمل فيه هذه الغرفُ للاختباء. عندما بنينا هذا البيتَ شعرْنا أنّ إلزامنا بغرف الأمان تلك يُنْقص مساحةَ الدار، ولهذا استخدَمَها الجميعُ مخازنَ. استهترنا بها. أما اليوم، فننظر إليها ونقول إنه كان علينا إعارتُها المزيدَ من الاهتمام.» وقالت سيدةٌ أخرى بُني بيتُها قبل التسعينيات إنها اضطرّت إلى النوم هي وابنها المعوّق طوال فترة الحرب في الحمّام المبني في الطابق السفلي تحت «بيت الدرج،» الذي كان «أكثرَ أقسام المنزل أمانًا.»

كثيرون في القرى العربية لم يستعملوا الملاجئَ العامةَ المعدّةَ في القرية لمثل هذه الظروف. وحين سُئلوا لماذا لم يهرع العربُ إلى الملاجئ كما فعل اليهود، وهل عددُ القتلى العرب في هذه الحرب ناجمٌ عن ذلك الإهمال، جاءت ردودُهم مختلفةً أيضًا. فكثيرون قالوا: «نحن العرب نَعتبر الملجأَ إهانةً والخوفَ إهانةً؛ وهذا قلّةُ وعي. ثم إنّنا لم نَعْتَدْ أن يشاركَنا الآخرون حياتَنا الخاصة، وأن يناموا معنا في غرفة واحدة.»

لكنّ أ مِنْ معليا ينفي أن يكون العربُ رَفَضوا استعمالَ الملاجئ: «الصحيح هو أنّ معظم البلدات العربية افتقرتْ إلى الملاجئ أو التجهيزات الأساسية فيها. العرب، كغيرهم، أرادوا الاحتماءَ من القصف؛ لكنّ **الدولة** هي التي لم توفِّرْ لهم هذه الحماية.» والحق أنّ تقاريرَ كثيرةً، رسميةً وغيرَ رسمية، أثناء الحرب وبعدها، فَضَحت النقصَ الخطيرَ في الملاجئ العامة في البلدات العربية، وفي جاهزيتها إنْ وُجدتْ، وفي محطّات إطلاق صفّارات الإنذار. ففي الناصرة، التي قُتل فيها طفلان، لا يوجد أيُّ ملجإٍ عامّ، بل بضعةُ ملاجئ في المدارس لا تكفي لاستيعاب ٨٠ ٪ (٢٦٠٠٠) من الطلاّب[١]؛ وليست هناك محطّاتٌ لإطلاق صفّارات إنذار، باستثناء واحدة لم تُستخدمْ إلاّ بعد سقوط ضحايا (وهذا ينطبق على العديد من القرى العربية الأخرى)، ثم وُضع أساسُ محطتيْن إضافيتيْن ولكنّ أحدًا لم يُنْهِ

١ ـ مساواة، مصدر سبق ذكره.

> سألتُ الطبيب إنْ حصلوا على تعويضات في المستشفى، فأجاب بتهكُّم: «نعم. هدية، هي عبارة عن شحويطة [حذاء] وزّعوها علينا!»

تجهيزَهما. يقول ميخا ليندنشطراوس، مراقبُ الدولة، في تقرير لاذع ضدّ الحكومة وجهاز الأمن بتاريخ ١٨ تموز ٢٠٠٧، إنّ الحكومة لم تأخذْ في الاعتبارِ حمايةَ المدنيين حين قرّرتْ دخولَ الحرب، جازمًا بوجود «إهمالٍ قاسٍ في الوسط العربي، يتمثّل في الانعدام الكامل لوسائل حمايةِ أكثر من ٧٠٪ من أبناء الأقليات.»[١] أما يوآف شتيرن من صحيفة **هاأرتس** فقد جادل بأنّ النقص الخطير في البلدات العربية ناجمٌ عن اعتقاد العرب أنّ «الدول العربية لن تهاجمهم»؛ وهو لا يتحدّث عن الإهمال المؤسساتي إلاّ **بعد** تلك المحاججة.[٢]

أما عن الوجبات الغذائية التي وُزّعتْ في الملاجئ فيقول ج من إحدى قرى الشمال: «رميتُ وجبةَ الهمبرغر إلى أفيف [بالعبرية تعني ربيع، وهوالاسم الذي يُطْلقه على كلبه]!» وقال آخر: «إهانةٌ أن يوزِّعوا علينا وجباتِ طعام، وكأنّه يَنْقصنا طعام! ثم إنّ هنالك مَن استغلّ هذه الوجباتِ المجانيةَ فأمضى الحربَ في ملجإ القرية للاستفادة من الأكل ولُعَبِ الأطفال التي وُزِّعتْ على الناس.» وتقول ر من شفاعمرو: «لا شكّ في أنّهم وَزَّعوا وجباتٍ للعرب، وأخرى مختلفةً لليهود. فمن يدري ماذا وزّعوا علينا [نحن العرب]؟» وتؤكّد ل من معليا «أنّ كثيرا ممّا وُزِّعَ على اليهود لم يصل إلى البلدات العربية، كحفاظات الأطفال.»

وعن قدرة هذه الملاجئ على حماية السكّان يقول سائقُ تاكسي من قرية ترشيحا التي سقط فيها ٣ شباب قتلى كانوا في طريقهم إلى الاختباء في الملجإ إنّ ذلك هو قَدَرُهم، مضيفًا أنّ السلطات الأمنية الإسرائيلية تدّعي أنّهم قُتلوا لأنهم لم يمتثلوا لصفّارات الإنذار، فلم ينزلوا إلى الملاجئ؛ «ولكنّ الحقيقة هي أنّهم سَمِعوا الصفّارة وهم في سيّارتهم، فتركوها كما قالت التعليماتُ، وركضوا ليحتموا بأول ملجإ يجدونه، ولكنْ أثناء ركضهم كان الصاروخُ في انتظارهم!» وأكّد السائق في هذه المقولة مقولاتِ أشخاصٍ آخرين كُثُر اعتبروا عدمَ موتهم أو إصابتهم في هذه الحرب "حظّاً أو معجزةً،" وأنّ «لكل شخص، في النهاية، نصيبَه وما كُتِبَ له.»

فلسطينيو ٤٨ في خدمة الجرحى، كلِّ الجرحى

يقول طبيب فلسطيني يعمل في مستشفى رمبام في حيفا، وهو المستشفى الذي استقبل ثاني أكبر عدد من مصابي الحرب (٩٤٧ مصابًا، بينهم ٢٤٦ جنديّاً) بعد مستشفى نهاريا: «تلقّينا الأمرَ رقم ٨ بالامتثال ٢٤ ساعة يوميّاً في المستشفى بسبب حالة الطوارئ. كنتُ أعالج الجنودَ، وأحيانًا تَسْمح حالاتُهم بالحديث إليهم. قال أحدُهم: 'طلع علينا [المقصود حزب الله] وحشٌ لا إنسان.' أشفقتُ عليهم. كانوا أولادًا في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمرهم، مقطّعي الأرجل، غيرَ مُعدّين لهذه المعارك. كنتُ أنظر إليهم وأتساءل: أهؤلاء هم الجنود الذين يرسلونهم إلى الحرب؟»

ويتابع الطبيب: «لم يَعْرفوا أنّني عربي. كانت علاقتي بهم طيبةً جدّاً. كان الأهالي يثيرون الشفقةَ، ولم أكن أنظر إلى المصاب على أنّه جنديّ بل إنسانٌ جريحٌ، مهمّتي أن أعمل كلَّ ما يلزم لإنقاذه. توفّي أحدُهم، وكنتُ قد شاركتُ في علاجه، فكان إحساسي سيئًا جدّاً. كثيرون من أعضاء الطاقم الذين عالجوا مصابي الحرب هم من الأطبّاء والممرّضين والمعالِجين الطبيعيين العرب. لقد عملنا معًا، وبجميع قوانا، لنجعلَ أيَّ مُصابٍ يستردّ عافيتَه. كانوا يطلبون الغيتارَ، فنأتيهم به، ونستمع إليهم يَعْزفون. لم تَجْرِ بين أعضاء الطاقم في المستشفى أحاديثُ سياسية؛ فالجميع مشغول، ولا وقتَ إلاّ للطبّ. لقد تحوّل المستشفى العامّ إلى مستشفًى عسكري.»

في مستشفى الجليل الغربي (مستشفى نهاريا)، وهو أكبرُ مستشفيات الشمال وأهمُّها، واستقبل أكبرَ عدد من مصابي الحرب، كان قسمٌ كبيرٌ من الطاقم الطبي من العرب. تقول ممرّضة من إحدى القرى: «مع بدء الحرب أُنزل المستشفى بأكمله تحت الأرض، فشعر المرضى بأمان أكبر. اضطررنا إلى العمل في أقسام لم نعملْ فيها من قبل، فلم يعترضْ أحد. كان الجميع يعي أنّ الوضع طارئ. ضُرب قسمُ العيون ودُمّر كُلُّه تقريبًا، لكنّ إسرائيل عرفتْ كيف تستغلّ هذا الوضعَ لتستجدي التبرّعات.»

١ ـ متان حودوروف، «الحكومة فشلتْ في معالجة الجبهة الداخلية،» **غالي تساهال**، ٢٠٠٧/٧/١٨ (بالعبرية).

٢ ـ يوآف شتيرن، «الناصرة بعد الحرب: صفارة واحدة وصفر ملاجئ: البلدات العربية،» **هاَرتس** (بالعبرية).

تعويضات؟

ملايين الدولارات دَخلتْ خزينةَ إسرائيل أثناء الحرب. لكنّ التمييزَ في توزيع التعويضات بين العرب واليهود كان حاضرًا أيضًا... وبقوة.

سألتُ الطبيب أعلاه إنْ حصلوا على تعويضات في المستشفى، فأجاب بتهكّم: «نعم. هدية، هي عبارة عن 'شحويطة' [حذاء] ورّعوها علينا.» أما المحامي ع فيقول إنّ الجميع تلقّوا تعويضات، ولكنْ «أحيانًا حصل عليها العربُ بعد أيام من حصول اليهودي عليها.» وتقول المحامية ج إنّ المَبالغ المطالبَ بها «فاقت أحيانًا الضررَ اللاحقَ بالممتلكات، أو الخسارةَ الناجمةَ عن إغلاق المصلحة أو العمل، ولكنْ لم تكن هنالك اعتراضاتٌ على المبالغ التي طالبنا بها.» هذا ويؤكّد أحدُهم أنّ «بعضَ الاعمال انتعشتْ كثيرًا بسبب الحرب والتعويضات، في حين لحقتْ بأعمالٍ أخرى خسائرُ جمّةٌ ولم تنتعشْ إلى اليوم.»

ولكنّ محامين عديدين من الجليل قدّموا التماسًا أمام المحكمة العليا، بعد أن قرّر وزيرُ المالية، أبراهام هيرشيزون، استثناءَ جميع القرى والبلدات العربية الموجودة على الحدود الشمالية من قائمة البلدات «الحدودية» التي تستحقّ التعويضات. كما أنّهم فضحوا سياسةَ الدولة التي حاولت استثناءَ قرًى وقعتْ تحت قصف وخطر دائميْن، بل وسقط فيها ضحايا، كترشيحا ومعليا وفسوطة وعرب العرامشة، وجميعُها تبعد أقلّ من خمسة كيلومترات عن الحدود.[١]

انفصام الشخصية لدى فلسطينيي ٤٨؟

تزايدت العنصريةُ إبّان الحرب وبعدها ضدّ فلسطينيي ٤٨، الذين عانوا تحريضًا واسعًا من الإعلام الإسرائيلي والمؤسسات الإسرائيلية.[٢] وفي هذا الصدد تصف المحامية ج مشاعرَها أثناء الحرب قائلةً: «أَشْعر أنّنا في إسرائيل نعيش وضعًا شيزوفرينيّاً. فمن ناحية، نحن عربٌ ذوو تراثٍ وشعرٍ وموسيقى وحضارةٍ كبيرة؛ غير أنّنا، من ناحية ثانية، نعيش في دولةٍ لا تعترف بهذه الرموز لأنّها تهدِّد كيانَها. وهذا يدفعك إلى الخوف من التعبير عن نفسك كي لا يفسَّرَ ذلك على أنّك ضدّ الدولة. نحن نعاني نقصًا في كلّ شيء حضاري وتربوي. لا توجد أيةُ مؤسسة ثقافية، أو مسارح، أو أوبرا، أو معاهد، أو جامعات. في هذه الحرب شعرتُ أنّ العرب كانوا في هتساغا [تمثيلية بالعبرية]، وكأننا كنّا نقول: 'انظروا إلينا. فهناك في صفوفنا أيضًا من يُقتلون. نحن أيضًا نتعرّض للقصف'.»

محام آخر يعيش في مدينة كرميئيل، التي بُنيتْ على أراضٍ عربية (مجد الكروم) وسَقط منها عدةُ قتلى، يقول: «عانينا انفصامًا في هذه الحرب. فعندما كان نصرُ الله يَضْرب، كنّا نصاب بالرعب. لقد شلّت الصواريخُ حياتَنا، والضحايا يسقطون في كلّ يوم، ولا نستطيع قيادةَ السيارة من دون مخاطرة. ولكنْ حين لا يَضْرب نصرُالله، كان التلفزيون الإسرائيلي يهلّل بأنّ إسرائيل دمّرتْه وقَضَتْ عليه، فأُصلّي في أعماقي ألاّ يكون ذلك صحيحًا. غير أنّه عندما يعود ليَضْرب من جديد، أرجع لألعنَ هذا الوضع. لقد كانت مشاعري جنونيةً في كلّ الأحوال.»

ويقول س المتقاعد: «هذه أولُ مرة ننزل فيها إلى الملاجئ، وأولُ مرة نخاف. ومع أنّنا أردنا وقفَ الحرب، فقد كنّا سعداءَ بأنّ عنجهيةَ إسرائيل تتهاوى.»

قوةُ حزب الله أمْ ضعفُ اسرائيل؟

أعرب العديد من الفلسطينيين، أمامي وفيما بينهم، عن إعجابهم بقدرة حزب الله وصموده. لكنّ مفاجأتهم بضعف إسرائيل فاقت مفاجأتَهم بقوة ذلك الحزب. يقول ن، وهو شابٌّ عربيٌّ من حيفا: «خسر العربُ في جميع حروبهم مع إسرائيل. حزبُ الله فاجأنا. لقد بيّنتْ لنا هذه الحربُ أنّ هزيمة إسرائيل ممكنة. وبالفعل إسرائيل انهزمتْ، والأسطورة سقطتْ.» وفي شهادة حيّة لجنديّ احتياط من إحدى القرى الحدودية (ينتمي إلى الطائفة الدرزية التي فُرضتْ عليها الخدمةُ الإجباريةُ عامَ ١٩٥٦) يقول:

«استدعوني أواخرَ تموز وبقيتُ في الخدمة بعد انتهاء الحرب بشهر. طلبتْ مني طفلتي ألاّ أذهبَ إلى الحرب. منذ البداية كنتُ أعلم أنّ الحرب ستنتهي بالشكل الذي انتهت به. لقد توقّعتُ هزيمةَ إسرائيل. لم تحصلْ أيةُ مواجهة بين أيّ جندي إسرائيلي وجنود من حزب الله. الجنود الإسرائيليون لم يحاربوا ابدًا، ويكذب مَنْ يقول إنّ إسرائيل تقدّمتْ شبرًا واحدًا على الأرض. كان الجندي الإسرائيلي مذعورًا. يأتي، بحلقةٍ في أذنه وعقدٍ في عنقه، من دون أية معرفة بمن سيقاتل. من تجربتي في الحياة والجيش، كنتُ أعلم أنّ اسرائيل لن تستطيع الوقوفَ أمام حرب عصابات. لم يخطئ براك عندما انسحب عامَ ٢٠٠٠. كان عليه ان ينسحب، إذ لا يمكن القضاءُ على حزب الله بالقوة. وهذه الحرب أكّدتْ ذلك. جيّد أنّ براك عاد. الإنسان العسكري هو وحده مَنْ عليه أن يقود هذه المعركة. كان على عمير بيرتس أن يستقيل فورًا. لقد خَدَعَ الجميعَ ببرنامجه الاجتماعي، وتركه الكثيرون ممن التفّوا حوله في السابق. إسرائيل كانت محقّةً في شنّ الحرب، ولكنّ قوتها العسكرية اهتزّت أمام العالم.»

---

١ ـ حامد اغبارية، «قرى عربية على الحدود،» **صوت الحق والحرية** ٢٠٠٦/٨/٣١.

٢ ـ أنظر المؤسسة العربية لحقوق الانسان، الناصرة http://arabhra.org/asp/arb/?cid=21&tid=11&aid=11.

> كثيرون من سكّان الشمال يعتقدون أنّ الحرب قادمة... وجوازات السفر جاهزة إلى جانب مبلغ من المال!

لقد شعر اليهودُ بالعجز والإهانة؛ وهذا ما أكّده عربٌ كثرٌ في المدن المختلطة في جيرة وقرب. تقول ل من كرميئيل: «تربّينا والدولةُ تَزْرع في نفوسنا أنّها الدولةُ التي لا تمكن هزيمتُها. لكنّ ذلك كلَّه سقط في هذه الحرب. في الحارة التي نعيش فيها لم يبق يهودٌ أصلاً لنحتكّ بهم. جميعُهم تركوا أو نزلوا إلى الملاجئ. تلقّيتُ بعضَ الاتصالات من جاراتي اليهوديات اللاتي اتّصلن للسؤال عن أحوالنا. بعد أن عدن إلى بيوتهنّ لم يُفتح الموضوع. أعتقد أنهنّ كنّ يخجلن. شعرتُ أنهنّ انكسرن. كان من شأن فتح الموضوع خلقُ حساسيات.» وتضيف ل: «بعد الحرب بمدة التقيتُ ببضع جارات في ساحة لعب الاطفال، فأعربن عن خيبة أملهنّ في الحكومة، وأنهنّ لن يمنحنها أصواتهنّ في الانتخابات القادمة. كما شعرن أنّ الحرب وما عانينه كانا من أجلِ لا شيء، وأنّ اسرائيل لم تحقّق أيّاً من أهدافها.»

إحساسُ الفلسطينيين بهزيمة الطرف الآخر ومذلّته تَجَسَّدَ أيضًا في شهادة المربّية ع، التي تعيش في مدينة شمالية مختلطة. فهي تقول: «كانت لدى اليهود خيبةُ أمل. جارتي اليهودية لم تُرِدْ فتحَ الموضوع على الإطلاق. لقد شعروا بالخسارة. زارنا صاحبُ المنزل (وهو يهودي) وكان قد شارك في هذه الحرب جنديّاً احتياطيّاً. كان صريحًا وقال إنّه تأثّر لمقتل اللبنانيين، وإنه لن يذهب إلى الحرب مرةً أخرى، وإنّه لا فائدة من الذهاب إلى الحرب، وإنّ الجنود قد خاب أملُهم وتغيّروا. وقال لنا إنّ الحرب كان مُعَدّاً لها منذ البداية من قِبل اسرائيل، وإنّ جنود حزب الله قاتلوا حتى النهاية.» وتضيف ع: «كانت صعبةً رؤيةُ أشخاص نعرفهم يموتون. حزنتُ على كلِّ مَنْ عانى في هذه الحرب، فلسطينيين ولبنانيين ويهودًا. أحسستُ بأنّني سأموت أيضًا. لم أرغب في أن تكون نهايةُ الحرب بهذا الشكل، بل بتحقيق اتفاق سياسي ما؛ ذلك لأنّني واثقة بأنّ نهاية الحرب بهذا الشكل ستجرّ وراءها حربًا أشنع.» وقال أحدُهم: «أحمد الله أنّ حزبَ الله رفع رؤوسنا. لو ربحتْ إسرائيلُ لعانينا الكثيرَ من استهزاء اليهود بنا.» وقال آخر: «سعدتُ بهذه النتيجة لأنّي أردتُ فرصةَ أُذُنٍ لإسرائيل، ولكني كمواطن هنا أريد أن أعيش في دولةٍ قويةٍ تحميني.»

هل ثمة حرب جديدة على الأبواب؟

يعتقد العديد من فلسطينيي ٤٨ ومن اليهود أنّ حربًا جديدةً آتيةٌ لا محالة. فهل هذا الشعور ناجمٌ عن التجربة الصعبة التي عاشوها في العام الماضي، أمْ ناجمٌ عن تصاعد اللهجة الأمريكية ضد إيران وسوريا وحماس؟

يقول أحد سكّان مركز البلاد: «أعتقد أنّ سكّانَ الشمال يعيشون 'طروما' الحرب. لن تحصل حربٌ جديدةٌ الآن لأنّ الكلَّ يعلم أنها ستدمِّر الجميع.» الناشطة النسائية والحزبية في الحزب الشيوعي الإسرائيلي من منطقة المثلّث، التي لم يُطلَقْ عليه صواريخُ هي أيضًا، ترى هاجسَ الحرب مسيطرًا «بسبب طروما لا يزال السكّانُ يعانونها،» غير أنها لا تتوقّع هي أيضًا حربًا جديدةً في المدى القريب. وتتابع: «خرجنا عربًا ويهودًا منذ اليوم الأول للحرب في مظاهرات ضدّها، وبخاصة في تل أبيب. ما زلتُ أذكر أهمّ الشعارات التي هتفنا بها بالعبرية: ' لو نموت فلو نميت بشيروت ارتسوت هبريت' [من العبرية وتعني: لن نموت ولن نُميتَ في خدمة الولايات المتحدة]. فمن يريد أن يَدْخل حربًا جديدة من أجل الولايات المتحدة؟»

لكنّ كثيرين من سكّان الشمال يعتقدون أنّ الحرب قادمةٌ بأسرع ممّا يتوقّعها مَنْ لم يَعِشْها الصيفَ الماضي. وفي هذا الصدد تؤكّد الموظّفة ل: «مَنْ يعرف غرورَ إسرائيل يعرف أنّها لا يمكن أن تتغاضى عن مثلِ هذه الإهانة.» وتضيف، هي والعشراتُ غيرُها، أنّ جوازات السفر، بعد عام على الحرب، جاهزةٌ إلى جانب مبلغ من المال؛ فالبنوك قد تَحْجز مدّخراتِهم في حالة الحرب، وهم يريدون أن يكونوا مستعدّين لجميع الاحتمالات. وتَجْزم أنّ أحدًا لن يتردّد في السفر إلى خارج البلاد مباشرةً، بل في الهجرة النهائية، إذا اندلعتْ حربٌ جديدة.

ولقد صدفتُ حالاتٍ راهن فيها الناسُ بـ ٥٠٠ دولار أو أكثر على أنّ الحرب ستندلع نهايةَ العام الحالي. فهل ستندلع «حربٌ تنير سماءَ الشرق الأوسط جميعًا وتجعل الليلَ نهارًا هذه المرة»؟ كما أكّد لي العديد أنّ اندلاع حرب جديدة سيؤدّي إلى دمارٍ ما بعده دمارٌ يطول المنطقةَ باسرها. فهل خطابُ السيد نصرالله مؤخَّرًا، والذي توعّد فيه بـ «المفاجأة الكبرى،» يعزِّز المخاوفَ التي عَبَّر عنها العديدُ ممّن عاشوا حربَ تموز ولا زالوا يعيشون تداعياتِها؟

كاليفورنيا